**المحاضرة الثالثة**

**النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه**

تمهيد:

مما لاشك فيه أن كل نقد في نشأته لا بد أن يكون قائما على الانفعال، وقد عرف هذا النقد بتسميات مختلفة كالنقد التأثري، النقد الذاتي، أو الذوقي أو الانفعالي، والذي يعكس الناقد من خلاله تأثره المباشر والسريع بالنص، ويكون الحكم في هذه الحالة مرتبطا بهذا الاحساس قوة وضعفا. وقد عرف النقد العربي القديم صورا متنوعة من هذا النقد . فما مفهوم النقد الانطباعي؟ ماهي أسسه ومرتكزاته؟ وأخيرا ماهي المجالات التي تجلى من خلالها ؟

مفهوم النقد الانطباعي:

هو نقد ذاتي يعتمد على ذوق الناقد الخالص، يعكس من خلاله تأثر الذات الناقدة بالموضوع الإبداعي أي " ينقل للقارئ ما يشعر به تجاه النص الأدبي، تبعا لتأثره الآني والمباشر بذلك النص، دون تدخل عقلي أو تفكير منطقي صارم"[[1]](#footnote-1). ومعنى ذلك أن الناقد الانطباعي لا يصدر حكما أو تفسيرا للقارئ بقدر ما يعمل على استمالته وجذبه إليه.

ظهور المصطلح:

يعرف قاموس (Larousse) الانطباعية( Impressionnisme ) بأنها " مدرسة فنية تشكيلية، ظهرت تحديدا بين(1874و1886)، من خلال ثمانية معارض بباريس، وقد جسدت قطيعة الفن الحديث مع الأكاديمية الرسمية، وأنها اتجاه عام يسعى إلى تقييد الانطباعات الهاربة وحركية الظواهر بدلا من المنظر الثابت"[[2]](#footnote-2). ومعنى ذلك أنها ترى أن الرسام يعبر عن الانطباع الذي ارتسم فيه حسيا، وليس في تصوير ذلك الواقع الموضوعي.

وقد انتقلت الانطباعية من الفن التشكيلي إلى النقد الأدبي، وكانت كرد فعل قوي على أصحاب النظريات السياقية التي أرادت أن تجعل من النقد الفني نقدا علميا. فالاعتراف بالجانب الفردي في الأدب أو في دراسته أمر بديهي، وهذا ما أكده رائد الانطباعية الفرنسية "لانسون" عندما وضح منهج البحث في دراسة الأدب فقال: " وما دامت التأثرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها فلنستخدمه بصراحة، ولكن لنقصره في ذلك في عزم. ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميزه، ونقدره، ونراجعه ونحده. وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه. ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة"[[3]](#footnote-3). وهكذا تكون الوظيفة الحقيقية للناقد الانطباعي ليست في إصدار الحكم أو تفسيره للقارئ بقدر ما هي عمل على استمالته وجذبه هذا ما يؤكده جون لو ماتر( 1853-1914 j.lemaitre ) قائلا:" الناقد الحقيقي هو من يستميل قارئه ويستهويه ويجذبه إليه حتى ينسيه نفسه وكل ما حوله وينقله إلى عالم خاص"[[4]](#footnote-4).

النقد الانطباعي في النقد العربي القديم:

وجد النقد في الجاهلية مع وجود الشعر ملائما لروحه وانفعالاته، فكما يهتاج الشاعر لما حوله من الحوادث، كذلك يهتاج الناقد بوقع الكلام في نفسه، فالعربي على حد تعبير طه أحمد إبراهيم " حساس رقيق الحس، تنال الكلم من نفسه، ويهتاج لها اهتياجا، فإذا حكم على الأدب، حكم عليه تبعا لتأثره به، وبمقدار ذلك التأثر هو يحكم على الأدب ببلاغة الأدب، ويحكم عليه بالنظرة العجلى، والأثر السريع، وتلك النظرة العجلى تحول بين النقد وبين أن تكون له أسس وأصول مقررة "[[5]](#footnote-5). ومعنى ذلك أن الأساس الذي قام عليه النقد في الجاهلية هو الإحساس بأثر الشعر في النفس وعلى مقدار وقع الكلام عند الناقد. فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفا. وهذا ما يؤكده إبراهيم صدقة قائلا:" من المعروف أن النقد العربي القديم نشأ نشأة بسيطة، حيث كان الناقد يعتمد على ذوقه وانطباعه الفطري، يوجه نقده للشعر في كلمة أو جملة تجاه بيت أو عدة أبيات، كانت قد تركت في نفسه أثرا معينا، لأن الانطباع فطري في الإنسان، فهو يتأثر بالأشياء الجميلة، وبكل ما هو حسن فتبتهج له نفسه، بينما تنفر من كل ما هو قبيح وذميم وتشمئز منه"[[6]](#footnote-6).

مجالات النقد الانطباعي ونماذج من نصوصه

تجلى لنا هذا النوع من النقد في عدة مجالات:

1-النقد اللغوي : وهو النقد القائم على نقد الخطأ في الاستعمال اللغوي، فقد كان العربي على صلة وثيقة بأسرار لغته، يدرك بالفطرة الدلالة الوضعية للكلمات، فإذا حدث وابتعد الشاعر عن تلك الدلالة، واستعمل الكلمة في غير موضعها، يحس بذلك إحساسا مباشرا: ومن هذه الأمثلة ما رواه أبو عبيدة قائلا: " مر المسيب بن علّسة بمجلس قسي بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم:

ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم نحييك عن شحط وإن لم تكلــــم

فلما بلغ قوله:

وقد أتناسى الهمّ عند ادّكـــــــــــاره بناج عليه الصيعرية مكـــــــــــدم

فقال طرفة وهو صبي يلعب مع الصبيان: استنوق الجمل"[[7]](#footnote-7).

لقد تفطن طرفة لهذا الخطأ الذي استعمله الشاعر، فأنكر عليه ذلك، لأن الصيعرية سمة في عنق الناقة لا البعير- كما استعملها العرب- ونلاحظ أن طرفة أدرك بفطرته أن كلمة الصيعرية وضعت للدلالة على تلك السمة في عنق الناقة، فلما وضعت في غير موضعها الذي تعارفوا عليه، فطن طرفة إلى ذلك ونبه الشاعر إلى خطئه. ويبدو أن العربي شديد الحساسية بلغته، ودقيق الإصابة فيها، يجري في استعمال الكلمات على طبعه وسليقته، فإذا ظهر شيء يخالف الطبع والسليقة فطنت إليه الأذواق.

-2النقد المعنوي: كذلك قادت الفطرة العربي إلى الحرس على مطابقة اللغة لمعناها الذي عبر عنها مطابقة سليمة، أما إذا ابتعدت العبارة عن إصابة الهدف كأن يجنح إلى المبالغة أو ينحرف إلى معنى بعيد عن قيمه ومثله التي ارتضاها، رفض ذلك واستهجنه. ومن أمثلة ذلك ما عيب عن المهلهل بن ربيعة في قوله:

ولولا الريح أسمع أهل حجــــــــــــر صليل البيض تقرع بالذكــــور

فقد وصف بأنه أكذب بيت قالته العرب، لأن منزله كان على شاطئ الفرات من أرض الشام وحجر هي اليمامة وبينهما مسافة أيام"[[8]](#footnote-8) .

-3النقد العروضي: وهو النقد الذي يركز فيه على الجانب الموسيقي في الشعر، لأن الذوق العربي ألف هذه الرتابة التي تحققها وحدة الإيقاع والنغم، وينفر من كل ما هو نشاز، وهذا ما أنكرته العرب على النابغة حين وقع الإقواء في قوله:

أمن آل مية رائح أومغتــــــــــدي عجلان ذا زاد وغيـــــــــــــر مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنـــــــا غدا وبذلك خبــــــرنا الغرابُ الأسودُ

وقوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتّقتنــــــــــــــــا باليـــــــــــــــــدِ

بمخضب رخص كأن بنانــــه عنم يكاد من اللطافة يعقــــــــــدُ

فقدم المدينة فعيب عليه ، فلم يأبه لهما، حتى أسمعوه إياه في غناء ....فقالوا للجارية إذا صرت إلى القافية فرتلي، فلما قالت: الغذاف أو الغراب الأسود، ويعقد وباليد، علم وانتبه، فلم يعد فيه. وقال: قدمت الحجاز وفي شعري ضعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس"[[9]](#footnote-9).

4- تقديم الشعراء والمفاضلة بينهم من الصور النقدية الذائعة في العصر الجاهلي،" تعبر عن افتتان آني بالشعر، افتتان يستبد بالنفس في اللحظة التي هي فيها فيصدر المتلقي حكم الإعجاب"[[10]](#footnote-10) .

وقد يأتي التفضيل بسبب تقارب في المذهب الفني أو بسبب بيت يقع من النفس موقع المحب المكرم، ومن هذه الصور ما ورد في الشعر والشعراء لابن قتيبة أنه دخل الحطيئة على عتبة بن النهاس العجلي، فسأله: من أشعر العرب؟ فقال: الذي يقول:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتق الشتم يشتـــــم

يعني زهيرا. قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

من يسأل الناس يـــــــــحرموه وسائل الله لا يخـــــــــــــــيب

يعني عبيدا، قال: ثم من؟ قال: أنا "[[11]](#footnote-11).

هذه صور عن النقد الانطباعي التأثري عند العرب في الجاهلية، والتي تكشف عن تذوق الجمال في الأدب الذي مرجعه الطبع الذي نشأوا عليه، وإلى البيئة ذات الطابع العربي الأصيل في كل جانب من جوانبها، وهي في مجملها معايير نقدية ترتكز على الذوق الذي يحس الجمال دون أن يعرف سببه، كما تتسم بالارتجالية والعموم والبعد عن الدراسة التفصيلية للقصيدة. كما نجد صورا أخرى لهذا النوع من النقد في العصور الموالية للعصر الجاهلي فهذا عبد الله بن المعتز(ت 296) يؤمن بالمقولة التي أوردها ابن قتيبة والتي مفادها أن أشعر الناس من أنت بشعره حتى تفرغ منه، وهي قاعدة كما يذهب إلى ذلك إحسان عباس "قد ينفر منها النقد الموضوعي الخالص، ولكن نقاد العرب لم يوردوا قولة توجز معنى النقد التأثري مثلها"[[12]](#footnote-12)، وحسبنا من ابن المعتز تلك الأحكام النقدية الذاتية التي جاءت مبثوثة في كتابه طبقات الشعراء حيث يورد مجموعة من الأحكام على جملة من الشعراء فشعر بشار بن برد مثلا يرى أنه كله حسن، وكذلك شعر مسلم بن الوليد فهو حسن لا يدفعه عن ذلك أحد، وأشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت ساقط. ويرى إحسان عباس أن عبد الله ابن المعتز " كان ذا مذهب شعري ذي سمات ذاتية خاصة... فلجوؤه إلى هذه التأثرية يسبغ عليه صفة سعة الصدر في النقد ويحميه من الاتهام بالتحيز لطريقته... ولا ريب في أن الظهور بهذا المظهر التأثري يحقق له صفة الناقد العادل أكثر مما تحققه الموضوعية[[13]](#footnote-13) ".

هذه الآراء ذات الطابع الذوقي التأثري كما يذهب إلى ذلك إبراهيم صدقة " حاول القاضي الجرجاني تطبيقها على شعر الفحول الذي يهز النفوس ويحركها، ويجعل الناقد يعمد إلى تحليل ذلك وتعليل كنهه، ويورد أبيات للبحتري التي قالها عفو خاطره وهي من السمح المنقاد الذي تأنس له النفس وترتاح، يقول فيها:

ألام على هواك وليس عدلا إذا أحببت مثــــــــــلك أن ألاما

أعيدي في نظرة مستثيب توخى الأجر أو كره الملاما

تري كبدا محرقة، وعينا مؤرقــــــــــة وقلبــــــــــا مستـــــــــــــهاما

تناءت دار علوة بعد قرب فهل ركب يبلغها السلامـــــــــــــــــا

وجدد طيفها عتب علينا فما يعتادنــــــــــــا إلا لمامــــــــــــــــــــــــا

ثم يعلق عليها قائلا: "تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح، ويستخفك من الطرب إذا سمعته، وتذكر صبوة إذا كانت لك تراها ممثلة لضميرك"[[14]](#footnote-14). ثم يضرب عدة أمثلة من شعر امرئ القيس، وعدي بن الرقاع وغيرهما مركزا في ذلك على الجانب الآخر في النفس الإنسانية، وهو جانب العاطفة التي تكون سببا في تحريك النفوس وإمالتها، مبعدا العقل والمنطق في إصدار أحكامه. فالفكر البحت لا يصلح أن يكون قاعدة ينطلق منها الناقد في نقده وتقويمه للنتاج الفني. فالطلاوة والحلاوة والرونق والجمال ألفاظ هي مدار النقد عنده"[[15]](#footnote-15).

وهو نفس المقياس الذي يرتكز عليه القاضي الجرجاني فيستنكر ويمج ظاهرة التكلف والتصنع، فيقول: "ومع التكلف المقت وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة، وذهاب الرونق وإخلاق الدباجة وربما كان ذلك سببا لطمس المحاسن كالذي نجده كثيرا في شعر أبي تمام فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه فحصل منه على توعير اللفظ وتبجح في غير موضع من شعره فصار هذا الجنس من الشعر إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة، فإن ظفر به فذله من بعد العناء والمشقة، وحين حسره الإعياء، وأوهن قوته الكلال، وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستمتاع بحسن أو الالتذاذ بمستظرف وهذه جريرة التكلف".[[16]](#footnote-16)

ومن خلال هذه النصوص توضحت لنا صور من الأحكام النقدية القائمة على الأساس النفسي حيث يعود الناقد إلى نفسه ليتأملها ويتأمل ما يعروها من الهزة والارتياح فيكون طربه هذا هو المحك الرئيسي على جودة النص الأدبي، وبدونه يفقد النص حضوره مهما تهيأ له من براعة الوصف. وهذا ما يؤطده حسن طبل قائلا: "لقد كان التأثير الفني هو إحدى السمات الجوهرية التي يتمايز بها المعنى الشعري... فلقد تركزت أنظار النقاد في تقدير الشعر على مدى ما يتركه –عن طريق صياغته الفنية- من أثر لدى المتلقي، وكان معيار جودة الشعر هو لطف مدخله إلى النفس، وحسن وقعه في القلب، أي أن الناقد لا يحكم على الشعر إلا بناء على استجابته الخاصة كمتلق للانعكاسات النفسية، والاشارات الانفعالية التي تثيرها صياغة ذلك الشعر في نفسه"[[17]](#footnote-17)

وبناء على ما تقدم نخلص إلى أن النقد العربي كان في جملته نقدا ذاتيا انطباعيا، فالناقد فيه يكشف عن مزاجه وذوقه، فيذكر من الشعر ما طرب له وانفعل به، أو ما أصابه من صد ونفور، وغيرها من الأحكام التي يعود بها الناقد إلى نفسه ليتأملها ويتأمل ما يعروها من الهزة والارتياح أو العكس، لأن أجمل الشعر هو ما ترك أثره في النفس بأنغامه العذبة وصياغته الجميلة، وصدق محمد مندور عندما يقول: "الشاعر العظيم هو من ينجح في أن يهزك، وهو قد يستطيع ذلك بضخامة موسيقاه، كما يستطيع برقتها، وأما أولئك الذين نقرأ لهم فلا ينبض منك حس، ولا يهتز قلب، فلست أدري من أين يأتيه الشعر[[18]](#footnote-18).

1. - يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص9 [↑](#footnote-ref-1)
2. - المرجع نفسه، ص8. [↑](#footnote-ref-2)
3. - محمد مندور، في الميزان الجديد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1944، ص4 [↑](#footnote-ref-3)
4. - يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص9 [↑](#footnote-ref-4)
5. - طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص25 [↑](#footnote-ref-5)
6. - إبراهيم صدقة، التأثرية والنقد التأثري، عالم الكتب الحديث، ط1، 2011، ص14 [↑](#footnote-ref-6)
7. - المرزباني، الموشح، تحقيق علي بجاوي، نهضة مصر، ص93 [↑](#footnote-ref-7)
8. - المرزباني، الموشح، ص90، وينظرابن رشيق القيرواني، العمدة، ج2، ص62 [↑](#footnote-ref-8)
9. - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص ص67،68 [↑](#footnote-ref-9)
10. - عيسى علي الكاعوب، التفكير النقدي عند العرب، ص 33 [↑](#footnote-ref-10)
11. - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ص 330، 331 [↑](#footnote-ref-11)
12. - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني الهجري حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1993، ص104. ينظر عبد الله ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص140، 235، 264. [↑](#footnote-ref-12)
13. - المرجع نفسه، ص115. [↑](#footnote-ref-13)
14. - القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص30 [↑](#footnote-ref-14)
15. - إبراهيم صدقة، التأثرية والنقد التأثري، ص20، 21. [↑](#footnote-ref-15)
16. - القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص ص30،31 [↑](#footnote-ref-16)
17. - حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي، دار الفكر العربي، ط2، 1998، ص168. [↑](#footnote-ref-17)
18. - محمد مندور، في الميزان الجديد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،ط1،1944، ص70 [↑](#footnote-ref-18)